الرواية في الأدب المغاربي المعاصر

الكتابة الروائية المغاربية تعبير إبداعي عن رهانات ضمنية مختلفة، باختلاف شروط تحققها الحضارية والثقافية، العامة والخاصة، المشكلة لأهم مراحل تاريخ هذه الممارسة بالمغرب العربي. بأن الفهم الدقيق لأبرز التحولات، الفكرية والفنية، التي مر ويمر، بها مشهدنا الروائي من البداية إلى اليوم، يتوقف، في جزء كبير منه، على عمق معرفتنا برهاناته. نظرا للعلاقة الوثيقة القائمة بينهما.

ويمكن تقسيم تاريخ نشأة الرواية المغاربية وتطورها على المراحل التالية:

1 – المرحلة التأسيسية: تختلف في تحديدها الزمني بين بلدان المغرب العربي ،ولكن يمكن حصرها بين نهاية ستينات وبداية سبعينات القرن العضرين،و يطغى عليها هاجس إرساء قواعد ممارسة روائية مغاربية، تسد فراغ الموروث الثقافي العربي في هذا المجال، وتحاول محو آثاره المعرفية السلبية. على أنه إذا كان هناك شبه إجماع حول تاريخ نهاية هذه المرحلة، فإن بدايتها ظلت، مع ذلك، محط خلاف قوي بين الباحثين إلى اليوم. فمنهم من أرجعها لسنة 1957، تاريخ صدور (في الطفولة) لعبد المجيد بنجلون، ومنهم من ذهب لما هو أبعد وربطها بتاريخ صدور (الزاوية) للتهامي الوزاني سنة 1942، أو (الرحلة المراكشية) لابن المؤقت سنة 1924.

ومهما يكن من أمر، فالمؤكد أن ظهور الرواية العربية بالمغرب العربي عرف تأخرا ملحوظا مقارنة بتاريخي ظهورها في الشرق والغرب، وهو ما يعني، بعابرة أخرى، أنه تأخر مضاعف، جعل من الأعمال الروائية الشرقية والغربية نماذج تحتذى: (بالنسبة للرواية المغاربية تبدو الورطة أكبر، ما دامت تمثل العطب المزدوج، عطبها الخاص المتعلق بنشأتها، وعطب تقليدها للرواية المشرقية التي قلدت بدورها رواية الغرب، المبدع الحقيقي، بلا منازع، للرواية العصرية[. وضع غريب يثير أكثر من علامة استفهام، خصوصا مع عجز المعطيات السوسيوثقافية للمرحلة التاريخية المذكورة، عن تقديم أجوبة شافية لها، ما دام وزنها ينحصر في تفسير الشأن المحلي القطري، ولا يتعداه لتقديم تبرير موضوعي مقنع يزيح الستار عن سر تأخر ظهور الرواية العربية ككل مقارنة بالرواية الغربية. وأدى، بالتالي، لاعتبار الكتابة الروائية، كالدرامية، جنسا إبداعيا دخيلا ومستحدثا في المؤسسة الأدبية العربية، خلافا للشعر/ديوان العرب: (لا يختلف اثنان في أن الرواية العربية نشأت في العصر الحديث فنا مقتبسا من الغرب، أو متأثرا به تأثرا شديدا). وضع تتطلب الإجابة عنه، بالضرورة، توسيع دائرة البحث لتشمل طبيعة الرواية كجنس أدبي ارتبط، دائما وأبدا، في أذهان الباحثين، على اختلاف عصورهم وتوجهاتهم، بشروط مرحلة تاريخية محددة، تتجاوز نطاق المعطيات الظرفية المحلية الخاصة بالغرب أو الشرق على حد سواء. كما يؤكد ذلك كولدمان: (يبدو أن الشكل الروائي هو بالفعل تحويل على المستوى الأدبي للحياة اليومية في المجتمع الفرداني المتولد عن الإنتاج من أجل السوق). وهو ما يدعو للاعتقاد بأن تأخر ظهور الرواية العربية عموما، مغربية كانت أو مشرقية، أمر طبيعي يجد تبريره في تخلف الشروط التاريخية الملائمة، ويؤكده الغياب الفعلي الرواية في التراث القومي، رغم ما يذهب إليه البعض من توفره على أشكال (ما قبل روائية

بعودتنا لأعمال هذه المرحلة وتفحصها، في محاولة لاستخلاص القاسم (أو القواسم) الفنية والفكرية المشتركة بينها. نلاحظ ما يلي:

أولا – امتزاج الروائي بالسير ذاتي: لعل أبرز ما يشد انتباه الباحث في أعمال هذه المرحلة التأسيسية الهامة، من مراحل الكتابة الروائية المغربية، وربما في غيرها أيضا، طغيان ظاهرة امتزاج الروائي بالسير ذاتي، بحيث لا يكاد يخلو عمل من من بعض آثار هذا المكون الخاص على المستوى الحكائي، وما موضوع (في الطفولة) و(سبعة أبواب) إلا دليلا على ذلك: (الواقع أن معظم الروايات المغربية، وعلى الخصوص روايات البدايات، هي روايات سير ذاتية بشكل أو بآخر، حيث غالبا ما ينهل كاتبها من تجربته، محاولا الاستفادة من ماضيه كما هو، أو محورا بصياغة فنية، تختلف من كاتب لآخر.

ظاهرة تستدعي البحث عن الأسباب الثاوية خلفها لمعرفة ما إذا كانت مؤشرا على ما يطبع البدايات عادة من خلط أجناسي، ينم عن سوء فهم لخصوصية الكتابة الروائية، أم إفرازا موضوعيا يرتبط بمعطيات المرحلة التاريخية المذكورة. علما بأنها ظاهرة عامة تتجاوز نطاق ما هو وطني محلي، لتطال البدايات الروائية الشرقية والغربية على حد سواء: (اتخاذ السيرة الذاتية شكلا للتعبير عن الذات وعلاقتها بالمجتمع، ليس ظاهرة قاصرة علينا، فنحن نجدها واضحة وقوية في الإنتاج المصري خلال العشرينات الأولى) ، بدليل (زينب) لهيكل، و(الأيام) لطه حسين، و(حياتي) لأحمد أمين، وغيرها. وهو ما يؤشر على تماثل كبير في شروط وملابسات البدايات الروائية في المركز (الغرب والشرق) والمحيط (المغرب). ويستوجب، بالتالي، البحث عن أسباب ذلك فيما هو عام مشترك، لا فيما هو خاص فردي. وأغلب الظن أن معرفة عميقة بالخصوصيات الإبداعية لهذا الجنس الأدبي في ارتباطه بالسياق السوسيو ثقافي العام ستفيد حتما في كشف العديد من أسرار هذا الوضع المثير: (الواقع أن رواج النوع الروائي كان على حد سواء نتيجة تأثير فني وعلامة لذاتية متحررة بغتة، لذلك فقد عرفت الرواية شكلا واحدا هو شكل السيرة الذاتية، إلى حد أن الرواية الفنية ظلت خلال زمن طويل مرادفا لرواية السيرة الذاتية) ، مما يسمح باستنتاج أن بداية الكتابة الروائية المغربية كانت محكومة تاريخيا بما يمكن نعته بتضخم الأنا، لدرجة لم يجد معها الروائيون آنذاك بدا من تجربتهم الشخصية موضوعا أساسيا للحكي: (في مرحلة أحس خلالها المتعلمون والمثقفون بأهميتهم، فراحوا يستكشفون ذواتهم، ويعكفون على تفسير أناهم المتضخمة، وعلى تحديد العلاقة بينهم وبين مجتمعهم المتحرك في اتجاه واحد.

ثانيا – حضور الآخر: الخاصية الثانية المميزة لأعمال هذه المرحلة تتمثل في حضور الآخر/الغرب، ولو بأشكال مختلفة، كطرف أساسي فاعل في معادلة الصراع الحكائي ، حضور يجد سنده الموضوعي في الخصوصية التاريخية لهذه المرحلة المعروفة وطنيا وقوميا بكثرة المصادمات الحضارية وتنوع مظاهرها (الاستعمار، المطالبة بالاستقلال، التحدي الحضاري، والمثاقفة). وهو ما يفسر، في الوقت ذاته، الحضور القوي لهذه التيمة الحكائية في الكتابات الروائية المشرقية أيضا: (فالتساؤل عن علاقة الأنا-العربي – بالآخر – الغربي – تكاد تتلاحق بمستويات مختلفة منذ –عصفور من الشرق- إلى –قنديل أم هاشم-

إلى –الحي اللاتيني- ف –موسم الهجرة إلى الشمال- كأنضج وعي يطرح أنا –التحدي- في مقابل أن –الانبهار- التي عبرت عنها الروايات السابقة).

ثالثا – اعتماد قواعد الكتابة الكلاسيكية: أما على المستوى التقني المجسد لملامح الكتابة الروائية في هذه المرحلة فالملاحظ أن أغلبها يستمد رصيده من مقومات الرواية الكلاسيكية، المعروفة بهيمنة الحكياة، والاهتمام الكلي بالحبكة الروائية، بالإضافة للمحافظة المطلقة على خطية السرد، واعتماد السارد الكلي المعرفة، فضلا عن كثافة التدخلات المباشرة: (إن هذا البناء.. يقوم على الحكاية، والزمن الواحد المسلسل، والراوي التقليدي المطلع والعارف بكل شيء، والتعليمات المباشرة والوعظ والخطابية، وتدخل المؤلف بالتعليق على الأحداث والشرح.. ، مما يعد أمرا طبيعيا في هذه المرحلة المبكرة، نظرا لحداثة الجنس الروائي من جهة، وجسامة المسؤولية الأدبية الملقاة على كاهل هؤلاء الرواد، في غياب تقاليد روائية قومية، من جهة ثانية. لهذا نعتقد أن مثل هذه المآخذ لن تنال، بأي حال من الأحوال، من القيمة التاريخية الكبيرة لهذه الأعمال.

2 – المرحلة الواقعية: وتمتد زمنيا من نهاية المرحلة السابقة إلى منتصف السبعينات تقريبا، وتتميز من الناحية السياسية بحصول دول المغرب العربي على الاستقلال ، ودخوله مرحلة الجهاد الأكبر لمحو آثار التخلف والاستعمار. خصوصا بعد الآمال الوردية العريضة التي علقتها الشعوب المغاربية الاستقلال،وظهور مواضعات المرحلة الجديدة وتحدياتها ومشكلاتها.

إذا أضفنا لذلك كله، الآثار السلبية الفادحة لهزيمة(1967) النكراء، وما أحدثته من رجة فكرية ونفسية عنيفة في كيان جميع الشعوب العربية، في ظل ظرفية تاريخية مشحونة بصراع إيديولوجي قوي بين المعسكرين المهيمنين على الساحة الدولية آنذاك. أمكننا فهم سر اعتماد هذا التاريخ نقطة تحول جذري في مسار الكتابة الأدبية المغربية عامة، والروائية منها على الخصوص. وما التوتر الحاد الذي طبع المؤسسة الثقافية الوطنية في تلك المرحلة إلا دليلا صارخا على ذلك: (يمكن القول، إذن، إن الإنجازات التي طالعتنا منذ بداية الستينات، تعتبر تمثيلا فنيا للقوى الاجتماعية في صراع يحتد تارة ويخبو أخرى. فالتناقضات التي أذكت ذلك الصراع على المستوى السياسي خاصة، كان لها انعكاس بماشر في الحقل الأدبي والفكري. وفي هذا الإطار يكفي التذكير ببعض المفاهيم –النقدية- المهيمنة على الساحة الثقافية آنذاك، (كالصراع الطبقي/الالتزام/المثقف العضوي/ اليمين/ اليسار/ التقدمي/ الرجعي/الثقافة التقليدية/والثقافة الثورية)، لأخذ فكرة واضحة عن طبيعة هذه المرحلة. وهو ما انعكس على الكتابة الروائية المغاربية، التي وجدت ضالتها المنشودة في –الواقعية-، باعتبارها الاتجاه الإبداعي الملائم الكفيل بتحقيق الرهانات التاريخية المطروحة، كما تعكس ذلك بجلاء أعمال كل من محمد زفزاف، عبد الكريم غلاب، مبارك ربيع، ومحمد شكري،الطاهر وطار ،عبد الحميد بن هدوقة. لقد توجه الكتاب الجدد إلى موضوعات مجتمعهم الجديد، واستأثرت قضايا مرحلتهم التاريخية باهتمامهم، فعبروا عن فكر الطبقة الشعبية وإيديولوجيتها، وصوروا الجهل والفقر والمرض والتخلف والفساد، كما رصدوا مظاهر التجديد في الحياة الاجتماعية وآزروها.

وقد تميزت هذه الأعمال من الناحية الفنية والفكرية، مع اختلاف في الدرجات طبعا، بطغيان مجموعة من السمات، نجملها فيما يلي:

- تكريس هيمنة السياسي على الثقافي
- إعلاء الجوانب الفكرية على الفنية.
- إعطاء الأولوية لوظيفة الأدب على حساب طبيعته.
- اعتبار الاجتهادات الفنية مجرد محاولات إبداعية شكلية فجة.
- حضور بعض القضايا القومية (كقضية فلسطين مثلا).
- حضور التاريخ المغربي الحديث والمعاصر كتيمة روائية بارزة.
- الحضور المكثف لبعض الظواهر الاجتماعية التي تمس الفئات المحرومة.
- ظهور البطل الإشكالي.
- إسناد البطولة لمثقفي البورجوازية الصغيرة والمتوسطة.
- استخدام اللغة البسيطة الخالية تقريبا من كل ملامح البيان العربي الكلاسيكي.
- اعتماد الشروط الموضوعية في تحريك الأحدث الروائية، واستبعاد الصدف والمفاجآت المعمول بها سابق.

كل هذا طبعا إلى جانب استمرار حضور موضوعي السيرة الذاتية والغرب، ولو بدرجة أقل، مما يدعم ملاحظتنا السابقة بخصوص رفض الأدب، القوي، الخضوع لدقة وصرامة التحقيب السياسي والتاريخي. وأن اعتماد هذا الإجراء لا يعدو أن يكون مجرد خطوة عملية تستهدف التحكم في مجريات الدراسة، لا أقل ولا أكثر.

على أنه إذا كانت السمات السابقة تعكس، بصدق وأمانة، أبرز ملامح الوضع الاجتماعي والسياسي لتلك المرحلة، فمما لا شك فيه أيضا أن هذا الوضع كانت له سلبيات كثيرة على مسار الحركة الروائية المغربية يصعب تجاهلها. لعل أخطرها تكمن في إعاقته تطور الجوانب الفنية في موازاة الجوانب الفكرية. والحيلولة، بالتالي، دون تحقيق تطور أصيل ومتوازن لهذا الجنس الإبداعي المستحدث في التربة الوطنية، كما لاحظ ذلك بعض النقاد: (إن الذين كانوا يدرسون في كل مناسبة سوسيولوجية المضمون، لم يفكروا لحظة واحدة في رسم –ولو أولي- سوسيولوجية الشكل . وبذلك ظلت الممارسة الروائية المغاربية، والعربية عامة، تعاني من تبعات ولادتها القسرية، في شكل تمزق مأساوي فظيع، بين شكل روائي غربي ومضمون حكائي عربي. فـ(كيف يستطيع الروائي العربي أن يدفع في شكل مستورد محتواه أو فضاءه المحلي أو الخصوصي، والحال أن الشكل الأوروبي ليس نسجا خارجيا، أو مجرد رداء فضفاض يسع كل مجال، خصوصا وأن جهودنا في المرحلة التأسيسية السابقة، لم تتجاوز مهمة ملء الخانة الروائية الفارغة في التراث العربي القديم، عن طريق

تقليد النماذج الغربية. انهمكنا بعدها في معمعمة الصراع الإيديولوجي المحموم، معتمدين نفس الأشكال والتقنيات التعبيرية المستعارة السابقة، فأضعنا بذلك فرصة تأصيل الكتابة الروائية، وإيجاد أشكال سردية ملائمة لواقعنا المغربي، وخصوصياته الثقافية والحضارية إلى ما بعد منتصف السبعينيات، تاريخ بداية المرحلة الثالثة والأخيرة

3 – مرحلة التجريب: وتتميز على الصعيد السياسي بالعديد من الأحداث الهامة، الداخلية منها والخارجية. كان لها الوقع الكبير في تغيير مسار الأدب والفكر المغاربيين ، فقد شهدت هذه المرحلة بداية انهيار المعسكر الشرقي، بكل ما يحمله ذلك من دلالات عميقة على فشل الإيديولوجية الاشتراكية في تحقيق الآمال العريضة المعلقة عليها في معظم أرجاء المعمور. كما عرفت أيضا تطورات معرفية كبيرة همت مختلف حقول الدراسة الأدبية، خصوصا بعد الثورة اللسانية وما رافقها من اهتمام، غير مسبوق، بالجوانب الفنية للنصوص، بعيدا عن كل الاعتبارات الخارجية الغريبة عن حقل أدبية الأدب.

في ظل هذه الشروط السوسيوثقافية وغيرها، ظهرت على السطح تصورات أدبية جديدة تدعو، من بين ما تدعو إليه، تحديث الكتابة الروائية العربية، عن طريق تجاوز القوالب التعبيرية –القديمة المتهالكة- واستبدالها بأساليب جديدة أخرى، أكثر ملاءمة للوضع الثقافي الراهن: (لأن استمرار هذه الرؤية في ظل ظروف مستجدة أمر يسقط الأدب في متاهة الاجترار والتكرار. إذ لكل مرحلة حضارية قضاياها ومشكلاتها الخاصة بها، التي تتطلب رؤى فكرية وفنية مستجدة. مما يجعل الرؤية التقليدية تبدو وغير معبرة عن روح الجيل الجديد وهو ما أدى لقيام ما أصبح يعرف آنذاك، وإلى اليوم، بظاهرة التجريب، بكل رهاناتها الإبداعية الهادفة للبحث عن أنسب التقنيات السردية الكفيلة بإعادة الانسجام والتوازن المفقودين للكتابة الروائية المغربية في خضم النزاعات الإيديولوجية السابقة، وما رافقها من إهمال خطير للجوانب الفنية، أدى لتعطيل رهان التأصيل وتأجيله إلى حين. ما دام: (التجريب المستمر.. هو ما يهب الكتابة شرعيتها وتبريرها، وإلا فلا حاجة لنا بهؤلاء –الرواة-، وليس –الروائيين-، الذين ربما كان أفضل لهم لو اصطنعوا لهم منابر خطابية، ومارسوا التوجيه الأخلاقي، أو الاجتماعي، أو السياسي. لأن الرواية هي خطاب من العالم، .

ويمكن تلخيص أهم مرتكزات هذه الدعوة فيما يلي:

- تجاوز عن الأنماط الروائية السائدة
- تجاوز تقنيات الحكي الكلاسيكي
- تكسير خطية السرد
- تنويع الرؤى السردية، وهدم سيطرة السارد العالم بكل شيء
- استغلال التراث
- اعتماد البعد العجائبي
- الحد من أهمية الحكاية

- تفجير اللغة

- تكسير الحدود بين الأجناس والحد من هيمن معيار صفائها المزعوم. إلى غير ذلك من الآليات التعبيرية الأخرى الهادفة لتكسير القوالب القديمة، وتوسيع هامش تحرك القارئ للساهمة بفعالية أكثر في إغناء الممارسة الروائية والدفع بها نحو آفاق أرحب، كما صرح بذلك أحد الروائيين قائلا: (أنا أكتب رواية القارئ/الكاتب. أي القارئ الذي لا يقرأ لينام. فأنا لم أستطع، لحد الساعة، أن أفهم كيف يفتح المرء كتابا لينام. فهذه قمة العبث. أكبر إهانة للكاتب والكتاب. وما أعمال كل من برادة، المديني، التازي، حميش، شغموم، وآخرين، سوى نماذج لذلك.

وبالمناسبة تجدر الإشارة إلى أنه رغم الحماس الكبير الذي واكب هذه الدعوة من البداية إلى اليوم، فإنها ما زالت مع ذلك تواجه بعض الانتقادات، تحول دون تحقيق الإجماع المنتظر حولها.. موقف يمكن إرجاعه لأسباب عديدة، نذكر منها، على سبيلا المثال لا الحصر:

1 – الاضطراب الواضح في تحديد مفهوم التجريب، لدرجة تبعث على الاعتقاد بأن لا شيء يوحد بين أنصار هذه الدعوة سوى المصطلح. أما فيما عدا ذلك فكل واحد يعطيه ما شاء من حمولات دلالية قد تصل أحيانا حد التناقض الصارخ. متجاوزا بذلك كل الخطوط الإبداعية المعروفة أو المطلوبة في الممارسات الإبداعية الواعية والمسؤولة، لتتحول لمجرد ذريعة براقة، أو مزايدة مكشوفة، لإضفاء الشرعية على بعض الكتابات العشوائية الفاقدة للحد الأدنى من الروائية. كما نبه لذلك بصدق أحد المبدعين قائلا: (إن مصطلح –التجريب- في الرواية لا يفيد الانفلات المطلق من القوانين، والوقوع في الفوضى، والنزعات الذاتية، والادعاءات الفردية، ولعبة الغموض، واللغة المنفلتة من عقالها، وبهلوانيات الاستباحة الشكلية الصرفة).

2 – السقوط في التغريب: فعلى الرغم من التبريرات –الموضوعية- العديدة المصاحبة لهذه الدعوة، لا زال البعض يصر على اعتبارها مجرد حلقة جديدة في مسلسل الدعوات التغريبية المعروفة، ما دامت تستمد أغلب مقوماتها النظرية من خلفيات مرجعية أوروبية وأمريكية مكشوفة. وبذلك تخطئ بدورها طريق الأهداف المرسومة في البداية، ما دامت تستمر في النظر، كسابقاتها، لقضايانا القومية والمحلية، بعيون غيرية غريبة تاريخيا، وعاجزة إبستمولوجيا عن معالجة مشكلاتنا الحضارية الحقيقية في العنق: (لأن الفكر العربي كان يرفض بعناد أن يفكر في الشروط التاريخية والاجتماعية التي حكمت نضج هذه الأشكال في بعض البلدان، فإنه أقفل دون نفسه أبواب الاكتشاف والتجدد

3 – التجريب للتجريب: إن تغييب الشروط التاريخية الموضوعية الضابطة لقواعد الكتابة الروائية التجريبية وأهدافها، ترك المفهوم لدى البعض فضفاضا مفتوحا على كل –الاجتهادات- النظرية المختلفة المفرغة أحيانا من أي غاية محددة. ليتحول الرهان في النهاية لدعوة فنية مفتوحة تتوخى التجريب للتجريب، ضاربة عرض الحائط بالعلاقة الجدلية الوطيدة القائمة بين الشكل والمضمون. وهو ما لا يتلاءم تماما، حسب البعض، ومعطيات شرطنا السوسيوثقافي الخاص، وتحدياته التاريخية الجسيمة الراهنة

ومع ذلك، فرغم كل الاعتراضات السابقة، لا بد من الاعتراف بأن الرواية المغربية شهدت في هذه المرحلة الثالثة تحولات كمية وكيفية هامة، تمثلت في ارتفاع حجم الإصدارات السنوية، وما رافقها من تلوينات فنية كبيرة، أضفت على مشهدنا الروائي العربي ثراء لافتا يتجاوز حداثة سنه بكثير، مما يبشر بغد مشرق واعد في هذا المجال.

ب – رهانات الرواية المغربية:

من خلال العرض السابق يمكن استخلاص مجموعة من الملاحظات المحددة بشكل أوب آخر لأغلب رهانات الرواية المغاربية في مختلف مراحلها التاريخية. وهي ملاحظات تتوزع بحكم طبيعتها لثلاث مجموعات تتفاعل فيما بينها لرسم معالم مختلف هذه الرهانات وتحديد أبعادها:

1 – ملاحظات خارجية: وتشمل كل الخاصيات المرتبطة بالمعطيات الخارجية الفاعلة من بعيد في تأطير توجهات الكتابة الروائية المغاربية ورسم رهاناتها الفكرية والجمالية، بغض النظر عن تبايناتها النوعية الداخلية (تاريخية، سياسية، ثقافية، وحضارية..) من ذلك مثلا:

ـ أن الرواية المغاربية، بحكم انتمائها القومي، تشكل، بجانب مثيلاتها القطرية الأخرى، جزءا لا يتجزأ من الرواية العربية ككل. مما يجعلها تتحمل، بالإضافة لأعبائها الإقليمية الخاصة، أعباء جهوية عامة مختلفة، تتمثل جليا في التعبير المشترك عن نفس القضايا (فلسطين، الصراع الحضاري بين الشرق والغرب، والدفاع عن الهوية العربية..)، وما موضوعات روايات قنديل أم هاشم، عصفور من الشرق، الحي اللاتيني، في الطفولة، موسم الهجرة إلى الشمال، وتغريبة الحسين، إلا نماذج لذلك.

ـ أن الرواية المغاربية كالعربية، جنس أدبي حديث دخل الساحة الإبداعية المشرقية متأخرا مع الحملة النابوليونية على مصدر سنة 1798. وهو ما يعني بعبارة أخرى أنه جنس دخيل، ذو أصول غربية، يفرض على الروائيين العرب عموما، والمغاربة خصوصا، جهودا مضنية مضاعفة لاستنبانه وتأصيله في التربة المحلية، كخطوة أساسية أولى على طريق طي مراحل التخلف، وتحقيق التميز المنشود. الأمر الذي يمكن معه اعتبار الكتابة الروائية العربية، من هذه الناحية، إحدى واجهات تحدياتنا الحضارية الراهنة.

ـ أن انفتاح المغرب على العالم الخارجي، جعله يتفاعل بشكل قوي جدا مع الأحداث الدولية الكبرى، سياسية كانت أم فكرية، مما كان له أبلغ الأثر في تطوير مسار الحركة الثقافية الوطنية، وتجديد ملامحها العامة. وفي هذا الإطار يكفي التذكير بالمضاعفات الخطيرة لحادثي، النكسة العربية وانهيار المعسكر الاشتراكي، على الأوضاع الثقافية العربية، بما فيها الوضع الداخلي الوطني، للوقوف على حجم هذا التأثير، وتقدير انعكاساته المختلفة في تحديد رهاناتنا المعرفية، تكريسا، حذفا، أو تغييرا، بما يتلاءم وخصوصية الشروط السوسيو ثقافية الجدية.

2 – ملاحظات داخلية: وتضم المعطيات الداخلية المحددة لملامح الوضع الاستثنائي المميز للرواية المغربية عن غيرها من أعمال باقي الأقطار العربية الأخرى، لما لذلك من تأثير كبير في ضبط المواصفات، الكمية والكيفية، الخاصة برهانات كل قطر. منها:

ـ الظهور المتأخر للرواية المغاربية، مقارنة بشقيقتها المشرقية، المتأخرة بدورها عن الغربية، نموذجنا المشترك. أفرز إحساسا مضاعفا بالنقص لدى الروائيين المغاربة، تطلب جهودا استثنائية مضاعفة لتجاوزه، وتحقيق الرهانات الخاصة الملائمة لذلك، كما هو واضح من مختلف مراحل تاريخ هذه الممارسة على الصعيد الوطني.

ـ أن الرواية المغاربية، شأنها شأن كافة الممارسات الفكرية، مشروع إبداعي طويل زمنيا، على حداثته النسبية. فهو يمتد، في أضعف الأحوال، لما يناهز نصف قرن تقريبا. بكل ما عرفه العالم، ومعه المغرب اعربي، طوال هذه المدة، من أحداث، داخلية وخارجية، سياسية وثقافية، كان لها، دون شك، الأثر القوي، لا في تسطير بعض الرهانات فقط، بل في حذف وتعديل أخرى أيضا، بما يواكب هذه المستجدات، ويضفي على مشروعنا الروائي، في الوقت ذاته، طابعا حيويا خاصا، يستحيل معه الحديث عن رهانات محددة قارة.

ـ أن الرواية المغاربية، شأنها شأن كافة الممارسات الفكرية، مشروع إبداعي طويل زمنيا، على حداثته النسبية. فهو يمتد، في أضعف الأحوال، لما يناهز نصف قرن تقريبا. بكل ما عرفه العالم، ومعه المغرب، طوال هذه المدة، من أحداث، داخلية وخارجية، سياسية وثقافية، كان لها، دون شك، الأثر القوي، لا في تسطير بعض الرهانات فقط، بل في حذف وتعديل أخرى أيضا، بما يواكب هذه المستجدات، ويضفي على مشروعنا الروائي، في الوقت ذاته، طابعا حيويا خاصا، يستحيل معه الحديث عن رهانات محددة قارة.

ـ أن الرواية المغاربية، مغاربية بكل ما في الكلمة من معنى، أي أنها تعكس الخصوصية المحلية بمختلف تجلياتها، الثقافية، السياسية، والاجتماعية. لذلك فلا غرابة إذا ما وجدنا الرهان الوطني يحتل صدارة ترتيب هذه الرهانات، كما تعكس ذلك، بأشكال ودرجات مختلفة، كل النصوص الروائية المغاربية.

3 – ملاحظات خاصة: أن الرواية المغاربية باعتبارها مشروعا إبداعيا مشتركا بين فاعلين مختلفين، اجتماعيا، ثقافيا، جنسيا، عمريا، سياسيا ولغويا. شهدت قاعدة روادها اتساعا متزايدا شمل بعض المجالات المعرفية التي اعتبرت، إلى وقت قريب، بعيدة نسبيا عن دائرة الأدب وهمومه اللامتناهية، كالتاريخ، الفلسفة والقانون.. مما أثر، بشكل كبير، في إثراء الساحة الروائية الوطنية وإخصابها. لذلك فنحن حين نركز، في معرض حديثنا عن رهانات الرواية المغربية، على هذه الملاحظات الخاصة بالروائيين، فلاقتناعنا الراسخ بما لهذه العوامل الشخصية من أثر بالغ في تحديد الكيفية الخاصة لبلورة الرهانات الروائية الكبرى، ورسم الملامح المميزة للتجارب المنضوية تحتها.

من خلال العرض السابق، وما تضمنه من ملاحظات مختلفة، يتضح جليا، أن رهاناتنا الروائية، عديدة ومتشابكة. بفعل تداخل عوامل مختلفة، خارجية وداخلية، جماعية وفردية. تلتقي كلها في بلورة جملة من الأهداف المناسبة للخصوصية، المحلية والقومية، لهذا الجنس الأدبي. بهدف إثبات الذات، وطي مراحل اللحاق بركب الحركة الروائية العربية والعالمية، خصوصا بعدما تحول الحلم لحقيقة بحصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل للآداب سنة (1988)). رهانات تتخذ على مستوى الممارسة مظاهر مختلفة ومتنوعة، باختلاف تكوين

روائيينا، وتنوع رؤاهم الفنية، الفكرية، والسياسية. مما يغني الساحة الروائية الوطنية، ويضفي عليها ثراء خاصا، يجلانها تقف شامخة بجانب التجارب العربية المتطورة.

عموما، يمكن إجمال مختلف هذه الرهانات في النقط التالية:

- التعبير عن الواقع المغربي بمختلف تجلياته (اجتماعية/سياسية/حضارية/تاريخية..).

التعبير عن قضايانا القومية المشتركة، فكرية، السياسية، والحضارية (فلسطين/الهوية الحضارية/صراع الشرق والغرب..).

- المساهمة في ترسيخ الكتابة الروائية، كجنس أدبي دخيل، في التراث العربي.

- إيجاد كتابة روائية مغربية متميزة، تجسد الخصوصية المحلية شكلا ومضمونا.

- العمل على تدارك السبق المشرقي، والغربي أيضا، في هذا المجال.

- إضافة للرغبة في التعبير عن بعض الهموم والانشغالات الذاتية الخاصة، في بعدها الإنساني العام.

تلكم بعض رهانات الكتابة الروائية المغربية، كما عنت لنا من خلال استقراء واقع هذه الممارسة الإبداعية في مختلف تجلياتها. حاولنا بسطها، في هذا اللقاء العلمي المبارك، رغبة في إظهار حجم الأعباء والمسؤوليات الملقاة على كاهل روادها، إنصافا لهم على ما بذلوه، وتشجيعا لهم، في الوقت ذاته، على مواصلة الطريق لربح الرهانات المتبقية، وما أكثرها في مجال الكتابة الروائية عامة، والمغربية منها على وجه الخصوص.